

الميت لا تعني له الحياة اي شيء ، لانها لم تستطع بعد ان تفس شريط وعيه . المبرر الوحيد لاختراق جدار الخزان كان في القرع على بابه ، في تحطيم جداره ، لكن عندما لم نصل الى هذه النقطة ، فان موت الرجال الثلاثة اصبحت مجرد جزء من حدث يجري في الخارج . في فشل السائق .

هل يبقى من مبرر لطرح التساؤل على لسان ابي الخيزران والصحراء ، بعد ان رميت الجثث امام القمامة ؟

يقفز التساؤل الى ذهن ابي الخيزران فجأة كما تقول الرواية . ثم يأخذ معناه في الصدى الذي تزدده الصحراء ويبقى عالقا في ذهن القارئ . هذه اللحظة المفاجئة التي تجعل السؤال البديهي مفاجئا تعني اساسا عدم قدرة بنية الرواية على طرح الاسئلة . فيأتي السؤال من خارجها ، ليعيد تفسيرها ويشحن رموزها بامكانيات المستقبل .

ان عدم قدرة جدل عناصر الرواية الداخلية على الوصول الى التساؤل ، تعني ان الرمز الكبير - الخزان - لم يستطع ان يشحن بالحركة الواقعية . ففرض حرارته على الابطال وشل قدرتهم على التحرك . هنا تصل بنية الرواية الى مأزقها وطموحها في آن : مأزقها ، في عدم القدرة على الاقتناع من داخل حركة الرمز فيها ، فتلجأ الى عناصر خارجية لتقوم بتعبئة فراغات الرمز . وطموحها ، في كونها صدى لمحاولات الخروج من مأزق الخزان - السكون . فالخروج الفردي من المخيم الى البحث عن خلاص جزئي - وهذا هو المستوى الواقعي في الرواية - يتساقط ليفسح المجال امام ضرورات قرع جدار الخزان وكسره . هذا القرع لا بد وان يكون عملا جماعيا . نقيض رحلة الهرب الى الكويت ، لذلك يضع نفسه في اطار آخر . يشير الى المخيم والى ضرورة كسر جداره والخروج منه جماعيا الى الوطن - وهذا هو المستوى الرمزي في الرواية - لذلك يضطر النص الروائي للجوء الى عناصر من خارجه لتقوم بكسر حركته ، ورسم الملامح الاولى لجدل الخروج ، الذي لن يأتي الا على ايقاع الثورة الفلسطينية .

بين الدعوة الى كسر جدار الخزان وبين كسره في « ام سعد » تقع مسافة الهزيمة الحزيرية ، التي قامت بعنصرها السلبي والايجابي ، بقلب معادلة « رجال في الشمس » . « معائد الى حيفا » . تكشف للوعي الفلسطيني المذهول بالهزيمة ضرورات المعارك التي لا بد من خوضها ، وحركة المقاومة تضع الشروط الاولى للشروع في مسيرة المعارك . لكن الجدل الداخلي الذي تبحث عنه علاقات الرواية الداخلية ، لا يزال غائبا ، ولا بد من اكتشافه في لهب الممارسة اليومية . هنا تأتي اهمية « الاعمى والاطرش » ، ففي العودة الى خزان « الحواس » ، يعيد كنفاني اكتشافه للعناصر الداخلية التي تسمح له ليس فقط بطرح سؤاله ، بل بتلمس الجواب على سؤال واقعي يخرج من صلب الممارسة .

العلاقة المستحيلة مبدئيا بين الاعمى والاطرش ، تتحول في مشروع الرواية الذي لم يكتمل ، آلية اكتشاف الاجوبة من داخل أسئلة طرحها الحاجات اليومية لحياة المخيم . واللجوء الى الرمز في الشخصيتين الرئيسيتين ، هو عودة الى الحواس الاولى لتفجيرها من داخلها ، جعل اكتشاف الحركة ضرورة تنبع من داخل الحياة اليومية ، في الجدل اليومي الذي لا يتوقف عن طرح الاسئلة . داخل أسئلة هذا الجدل ، تبدأ الاجوبة في البروز راسمة ملامح المستقبل . هكذا القصة تبرز فجأة ، لانها تحمل في ثناياها تاريخا طويلا من المعاناة . ثم حين يأتي اللقاء في المقطع الثالث من الرواية ، يكون عند الولي - الوهم ، الذي يجري كشفه في حركة حوار مستحيلة بين الرجلين ، هنا تبدأ الرواية برسم مستقبلها ، تكتشف أرضها الواقعية ولا تستمر .